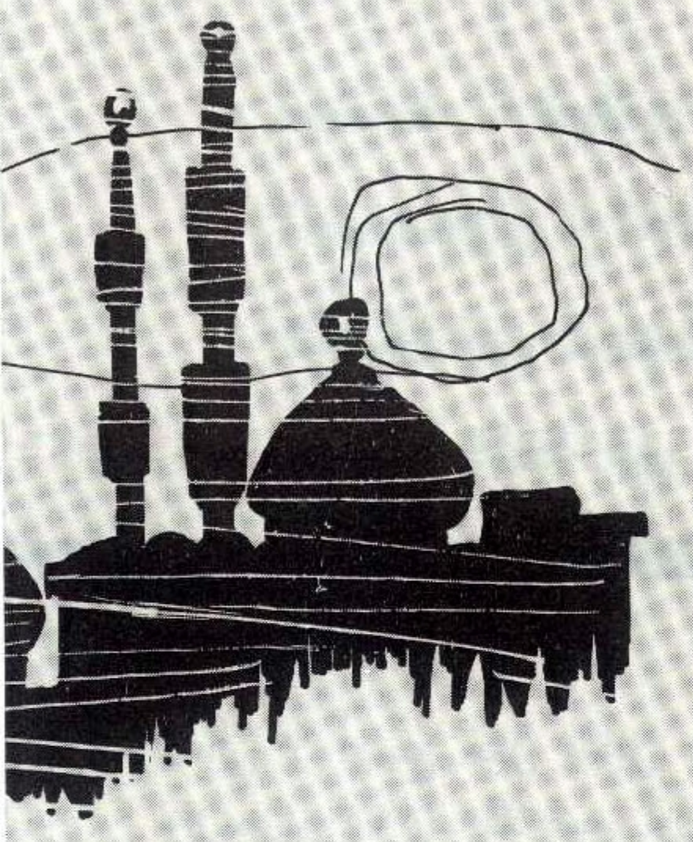

من القصص التربوي في القرآن الكريم

المثال

■■ يُولي علماءُ النفس ، وخبراء التربية القَصَصَ المعبر ، والمثالَ المؤثر أهمية كبرى ، وعناية قصوى باعتبارهما من أخطر وسائل الإيضاح ، وطرائق الإفصاح ؛ فنراهم يُوصون بهما الوصية الأكيدة ، ويلحون على ضرورة اصطناعهما الإلحاح الشديد لما يرون لهما من الفعل النافع ، والأثر الناجع في مجال التربية والتقويم .

ولقد ظن هؤلاء ، وأولئك أنهم قد خَلَقوا في هذا خلقاً ، أو أنهم ابتكروا به صُنعاً ؛ ولكنْ إن يتبعون إلا الظن ، فقد سبقهم إلى هذا - ولا ريب - الكتاب التربوي الأعظم الذي أنزله ربُّ كل شيء ، وخالق كل شيء على قلب المعلم الأمثل ، **محمد** ﷺ بعد أن أدَّبه سبحانه فأحسن تأديبه .

إذ ضرب الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أدق الأمثال ، وقصَّ أحسن القصص لتكون عبرة لمن يعتبر ، وذكرى لمن يدَّكر .

ولئن كلف علماء النفس ، وخبراء التربية بالقصص والأمثال الرمزية التي تزخر بها كتب المناهج الدراسية ، وبعض كتب التراث مثل كتاب « **كليلة ودمنة** » الذي يسوق ما ينبغي أن تكون عليه الأخلاق في أسلوب برضى بالتلميح دون التصريح : **فإن القصص القرآني الحكيم ، والمثل السماوي المحكم جاءا بالفكرة الحية التي تعيش بين الناس ، وتتجسد أمام الأسماع والأبصار .**

والقرآن بهذا يواجه الإنسان بنفسه ، ويكشف النفس أمام صاحبها ، فكأنما الإنسان ونفسه مرآة عاكسة ومعكوسة معاً ، ومرسلة ومستقبلة في آن واحد ، فإذا لم يتأثر المرء بالمثل بعد هذا الحق الصراح ، والبيان المفحم فإن ذلك لهو العتو بعينه ، وإن هذا لهو الضلال المبين .

وَلَكَ في هذا المجال أن تتأمل بفكرك الواعي بعض الأمثال التربوية الرائعة التي يسوقها إلى الناس ، ربُّ الناس .

فهذان مثلان جهيران ، ضربهما الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في موقف المحنة ، والاختبار ، على سبيل الموعظة والاعتبار :

﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٢٥) .

وهما مثلان لفتيين يافعين إن يكونا قد اختلفا في نسب النُبُوَّة والأبُوَّة ، فقد اتفقا في الانتساب إلى بيتين عريقين من بيوت الرسالة والنُبُوَّة .

وأحد هذين الفتيين هو **وَلَدُ نوح عليه السلام** ، وثانيهما هو **إسماعيل ولدُ إبراهيم عليهما السلام** .

ولقد بَيَّنَ الله عز وجل هذين المثلين في كتابه التربوي المجيد مبيناً تقابل الخير والشر ، وتنافي الرشد والحمق في مدى استجابة الأبناء لتوجيهات الآباء ولا سيما في مواقف الشدة ، والخطر ، ومواطن الرهبة ، والحذر .

فنحن أمام هذين المثلين إزاء وسيلةٍ تربوية إلهية معجزة وموقفٍ سماويٍ مبين .

وما أظن الشباب المسلم اليوم إلا في حاجة - وأية حاجة - إلى الوقوف ملياً أمام هذه الأمثال الباهرة ، والدروس العامرة في تأمل طويل ، وفي دراسة وتحليل ؛ ممعناً فيها ما وهبه الله من لُبّ ، ومهيئاً لها ما منحه الله من قلب .

لقد وُضع كلٌّ من الولدين في امتحان عسير ، واختبار خطير ، وناهيك بامتحان عقدته المشيئة الإلهية .. هل يجتازه إلا الصابرون المؤمنون ؟!!

فأما وَلَدُ نوح فقد شهد الطوفان الغامر شهادة العين ، ورأى بعيني رأسه سفينة أبيه ذات الألواح والدسر ، وقد حملت من كل زوجين اثنين ، وأهله .

نعم !! شهد الابن ذلك المشهد المصيري الرهيب حيث تجري السفينة بمن فيها من المؤمنين الصادقين في موج كالجبال . ولكنه في عناد وغرور ، يأخذ مكانه بعيداً بعيداً مؤثراً العصيان على الطاعة ، ومفضلاً العزلة المهلكة على

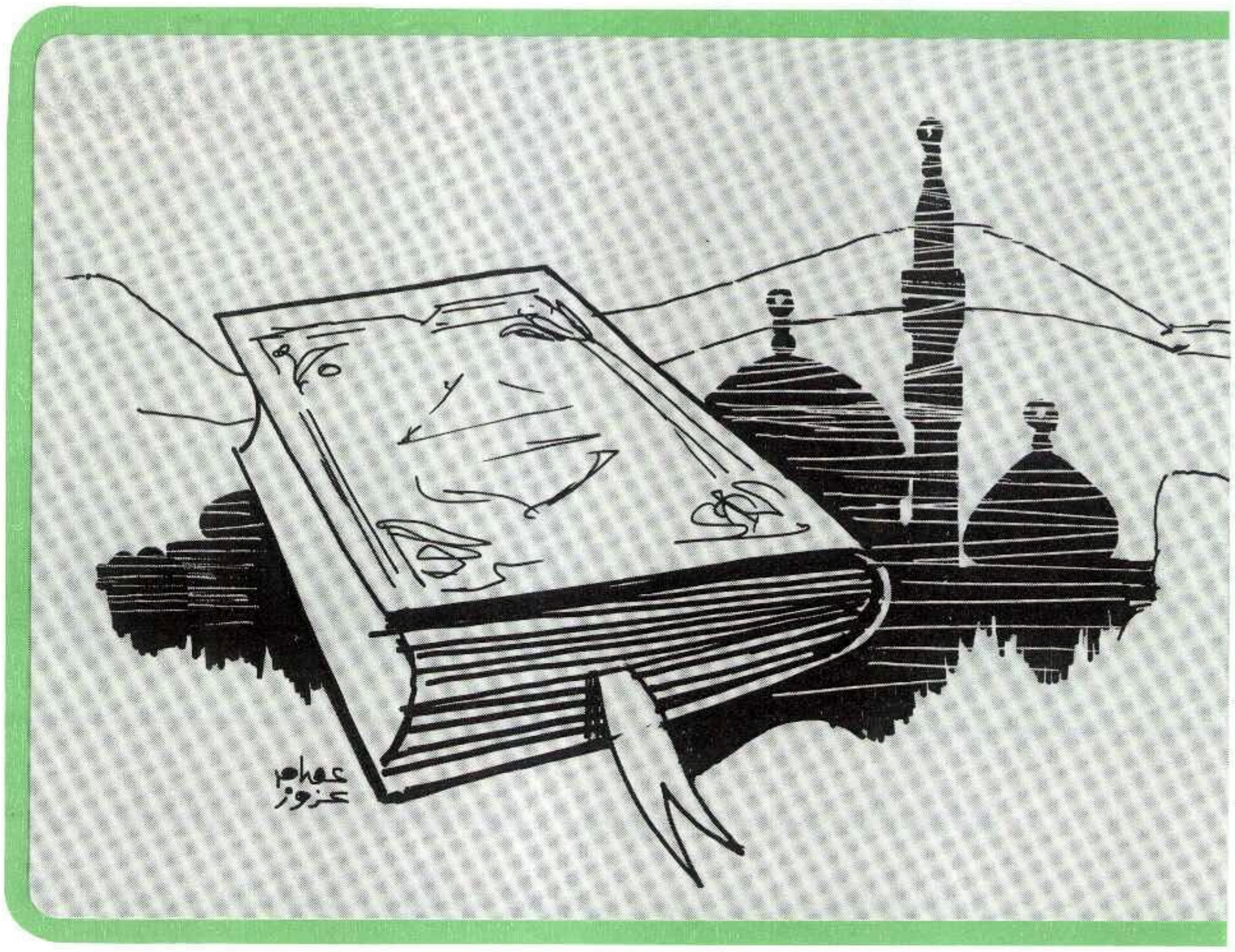

بقلم :

محمد مصطفى البسيوني

الجماعة ظناً منه أن مأواه إلى الجبل سيعصمه من الماء ... وهيهات ..

وعندئذ يرتجف قلب الوالد الواله فَرَقاً على ولده الذي يحدق به الخطر من كل مكان ، ويحيق به الهلاك من كل صوب أمام ناظريه ؛ فيدعوه في لهفة شديدة وإشفاق رحيم :

﴿ يَابُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ (هود : ٤٢) ، ولكن الولد الأحمق العاق يَرُدُّ أباه القلق الحاني في صلف واستهتار ، ويزين له صلفه واستهتاره أنه قد عثر على الحجة التي تبرر له هجر أبيه وعصيانه :

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ ﴾ (هود : ٤٣) ، ولكن الأب الشفوق اللهيف يعود إلى مناجاة ولده ، ومناداة فلذة كبده ، لا ينال من أمله يأس ، ولا يضعف من همته خَوَرٌ ولا فتور .. ومن يدري ؟ لعل الإلحاح يعيد ابنه إلى الرشاد ، ويهديه إلى السداد !!

هناك ظل الوالد الشيخ يجادل ولده ، ويؤكد له نصحه الصادق الأمين :

﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ (هود : ٤٣) .

﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ (هود : ٤٣) .

ولعل الله سبحانه وتعالى ـ وهو بمراده أعلم ـ قد أتاح للابن وأبيه فرصة الجدل ، وفسحة الحوار حتى يستنفد كلٌّ منهما حقه في القول ، وعندئذ يكتمل المثل ، وينقضي الأجل ؛ ليصبح بعد ذلك آية للناس جيلًا بعد جيل .

ذلك ابنٌ ينصحُهُ أبوه بأن ينجو من خطر داهم ، وطوفان عارم ، ويبين له سبيل النجاة ، ويرسم له وسيلة الحياة ، بل وتكاد هذه النصيحة الأبوية الخالصة أن تخرج إلى الرجاء والتوسل ، ولكن الابن الجانح سادرٌ في غيِّه كأن في أذنيه وقراً فهو لا يسمع نداء ، أو كأن على بصره غشاوة فهو لا يرى قضاء ، أو كأنه قد أصر إصراراً على عصيان أبيه ولو دفع حياته وروحه ثمناً لذلك العصيان .

*****

وأما الولد الآخرُ فإسماعيل عليه السلام ، لا يكاد أبوه **إبراهيم عليه السلام ينهي إليه ما رآه في المنام ـ مجرد المنام ـ من أنه يذبحه حتى يهب طائعاً ملبياً هاتفاً في حماس :**

﴿ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ... ﴾ **فلله** ما أعظم بطولة الأب ، وما أروع بطولة الابن !!!

ولئن دخل **إسماعيلُ** مع أبيه في جَدَل ـ وحاشاه ـ فما كان أيسر عليه من أن يذكر لأبيه أن ذلك المنام قد يكون أضغاث أحلام .. ولكن الطاعة المذعنة ، والاستجابة المؤمنة تمنع إسماعيل أن يقف من أبيه موقف المراوغ المجادل حتى لو كان موضوع هذه المراوغة والمجادلة نجدة روحه ، وإنقاذ حياته من الذبح ، وحتى لو كان هذا الذبح قد جاء أمره في المنام ، وليس في العيان .

وكأننا **بإسماعيل** لم يكتف بتلبية حلم أبيه ، وهو يعرضه له في صورة الحديث الجاري وليس الأمر القاطع :

﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَٱنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ (الصافات : ١٠٢) ، كأننا بإسماعيل لم يكتف بالطاعة فقط ، ولكن لعله عند ذاك قد أخذ يربت على كتف أبيه الشيخ مهدئاً من عاطفته ، معزياً له ، مطمئناً إياه في إسلام عامر ، وإيمان باهر :

﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ ﴾ (الصافات : ١٠٢) .

لم يكن الخطر مشهوداً للابن كما كانت الحال في الطوفان ، ولكنه كان مناماً ؛ ولم يكن الابن نفسه هو الذي رأى ذلك المنام ، كما لم يكن خطابُ إبراهيم لولده في صيغة الأمر كأمر **نوح** لابنه :

﴿ يَا بُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا ... ﴾ (هود : ٤٢) ، ولكن **إسماعيل** في إيمانه المطلق ، وإذعانه الحق ، قد عرف النجاة العظمى في طاعة أبيه ، وهي نجاة تدركها البصائر النافذة دون الأبصار الجامدة ، وتعيها القلوب الواعية التي لا تقف عند الساذج المحسوس من الأمور .

ثم نقف في نهاية المشهدين المتقابلين عند نقطة المصير ، فبينما ينتهي أمرُ الولد العاصي إلى أن يكون من المغرقين ؛ إذا بالولد المطيع يكافأ على طاعته بالمثوبة والنجاة :

﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (الصافات : ١٠٧) .

وهكذا نرى أنفسنا أمام صورتين تحلَّت إحداهما بالإيمان ، وباءت الأخرى بالعصيان والخسران .

فلله كم نتشوف إلى المدارَسة الدَّؤوب ، لمثل هذه العبر والأمثال مع أبنائنا الشباب ، الذين ندعو لهم بالتوفيق في كل حين .